



مصطلحات قديمة في القاموس السياسي (3 - 3)

بقلم : رائف محمد الويشي

25 مارس 2012

ذكرنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة أن السياسيين (أي الحكام) كان لهم على مر التاريخ السبق في جلب الشرور إلى الأرض ، وقد ذكرنا أن سلوكيات السياسيين في القرن الماضي وحده تسببت في مقتل 220 مليون من بني البشر بالإضافة إلى ضعف هذا الرقم من الجرحى ، مع ما صاحب ذلك من تدمير شامل في الممتلكات العامة والخاصة في عدة دول متفرقة .. ذكرنا في الحلقة الأولى أيضا مصطلحين من القاموس السياسي لهؤلاء الحكام وهما مصطلح الطغيان ومصطلح الاستبداد .. في الحلقة الثانية ذكرنا مصطلحات الدكتاتورية والشمولية والسلطة المطلقة والأوتوقراطية .. اليوم وفي هذه الحلقة الثالثة والأخيرة سنذكر مصطلح الديمقراطية ..

سابعا : الديمقراطية

تعتبر كلمة " الديمقراطية " من أكثر الكلمات استخداما في أركان المعمورة ، كل شعوب الأرض تطلبها وتتظاهر من أجلها ، وكل الحكام على مختلف مستوياتهم يزعمون أنهم يطبقونها في حكمهم ..

فما هي تلك الكلمة الساحرة التي تلعب بقلوب وعقول البشر على مختلف مستوياتهم ؟

الديمقراطية هي كلمة يونانية في الأصل نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا القديمة ، وهي مكونة من قسمين ، الأول Demos ويعني عامة الناس ، والثاني kratia ويعني حكم الشعب أو حكم الشعب لنفسه ..

تعرضت الديمقراطية منذ نشأتها إلى عملية تطور من حين إلى آخر ، ديمقراطية أثينا اليونانية افتتحت العهد بإعطاء ربع ذكورها فقط الحق في التصويت ، كما أن الشعب حينها لم يكن لديه ممثلوه (النواب) ، فكانت القرارات يتم اتخاذها بصورة مباشرة وفي حشد عام ، وكانت تلك هي مرحلة الديمقراطية المباشرة ..

ساهمت البوذية والمسيحية والإسلام بصورة كبيرة في تطوير المعاني الواضحة لكلمة الديمقراطية ، ففي ما يُعرف الآن بجمهورية الهند كانت هناك جمهورية ماهاجاناباداس التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت هناك أيضا جمهورية فايشالي (تسمى بمنطقة بيهار اليوم) حيث كانت أول حكومة ديمقراطية في العالم ..

أعقبت تلك المرحلة قيام الإسكندر المقدوني بإنشاء جمهوريتين ديمقراطيتين في آسيا في القرن الرابع قبل الميلاد وهما ساباركايي وسامباستايي ، وهما ما يعرف الآن بباكستان وأفغانستان ..

جاءت في أعقاب ذلك مرحلة وسطية انتشرت فيها الإمبراطوريات في عدة أماكن حول العالم وأنشئت أنواعا مختلفة من الديمقراطيات ، وقد حدث ذلك في عدة أماكن حول العالم ، فكانت هناك الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الهلينية-الرومانية والإمبراطورية الصينية والإمبراطورية العربية-الإسلامية والإمبراطورية المغولية ..

أنشأ الفلاسفة في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ما يُعرف بعصر التنوير ، نادي الفلاسفة في تلك

المرحلة بالاعتماد على العقل كوسيلة لتكوين نظام شرعي قائم على الأخلاق والمعرفة بدلا من الاعتماد على الدين ، لا شك أن التطبيق الظالم والخاطئ لرجال الدين في تلك المرحلة قد ساعد بصورة مباشرة على انتصار وجهة نظر هؤلاء الفلاسفة والتي كانت تتمحور في ضرورة أن يتنحى الدين جانبا عن نواحي الحياة وأن يحل العقل البشري مكانه ..

قاد مرحلة التنوير مجموعة قليلة من فلاسفة أوروبا ، كان على رأسهم ما يلي :

جان لوك : إنجليزي ولد في عام 1632 ، يعد من أشهر كتاب الفلسفة الليبرالية ويعتبر كتابه " الحكومة المدنية " أشهر كتاباته ، ومن أقواله " لما كان الناس جميعا أحرارا ومتساوين بالطبيعة فلا يمكن انتزاع شخص من حالته هذه وإخضاعه للسلطة السياسية لشخص آخر إلا برضاه " ..

بينيتو اسبينوزا : هولندي من أصل برتغالي يهودي ، ولد في عام 1632 ، كانت له آراؤه المستقلة في حقوق الإنسان ، وقد تعرض إلى الطرد من الجماعات اليهودية ثم من الحرمان من الحقوق المدنية في عام 1656 ، ويعتبر كتاب " الأخلاق " أهم كتبه ، وقد عُرف عنه تواضعه وزهده في الحياة ..

مونتيسكيو : فرنسي ولد في عام 1689 وهو مؤسس مبدأ الفصل بين السلطات ، وبصماته واضحة المعالم في الدستور الأمريكي والدستور الفرنسي وكذلك في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، ويعتبره كتابه " روح القوانين " أهم كتبه وأكثرها انتشارا ويتم تدريسه في أغلب معاهد العلوم السياسية في العالم ، ومن أقواله " الناس سواسية في النظام الديمقراطي والنظام الاستبدادي ، في الأول لأن الناس هم كل شيء وفي الثاني لأنهم لا شيء " ..

فولتير : كان أديبا وشاعرا وفيلسوبا فرنسيا ، ولد في عام 1694 وأحد أهم المدافعين عن حقوق الإنسان وحق كل إنسان في ممارسة شعائره ، وقد سجن في الباستيل عدة مرات ، ومن أشهر أعماله قصيدة " المعاهدة " ، ..

ديفيد هيوم : اسكتلندي وكان فيلسوبا واقتصاديا ومؤرخا ، ولد في عام 1711 ويعتبر من مدرسة الفلسفة التجريبية ومن تلاميذ جان لوك وجورج بركلي وإسحاق نيوتن ، ويعتبر كتابه " تاريخ إنجلترا " هو أشهر كتبه ، ومن أقواله " الحكيم هو من يبني برهانه على الإيمان " ، " يمكن بصفة عامة القول بأن الأخطاء في الدين خطيرة ، والأخطاء في الفلسفة سخيفة فقط " ..

جان جاك روسو : سويسري ولد في عام 1712 ، وقد صنّفه الكثير من المتخصصين بأنه أهم كتاب عصر التنوير ، وتقف كتاباته وراء الثورة الفرنسية ، كما كانت مصدر إلهام لمؤسسي الفكر الشيوعي بسبب انحيازها الواضح للفقراء ومحاربة الاستغلال ، ويعتبر كتاب " العقد الاجتماعي " أهم كتبه ، كما يعتبر كتاب " إميل أو عن التربية " والذي يتناول حياة طفل بهذا الاسم مرجعا حتى اليوم في معاهد التدريس والتربية ، ومن أهم أقواله " الحرية صفة أساسية للإنسان ، وحق غير قابل للتفويت ، فادا تخطى الإنسان عن حريته فقد تخطى عن إنسانيته وعن حقوقه كإنسان " ، " العدالة الاجتماعية شرط الحرية وشرط انسجام الإرادة الخاصة مع الإرادة العامة " ، " القوة لا تؤسس الحق " ، " الإنسان ولد طبييا بطبعه ولكن المجتمع هو الذي يفسده " ..

دنيس ديدرو : فرنسي ولد في عام 1713 ، وهو أحد رواد عصر التنوير وأشرف على إصدار موسوعة " الفنون والعلوم والحرف ، كما كان أول رئيس تحرير للموسوعة العلمية ، ومن أقواله " لن يتم يتحرر البشر إلا بعد أن يتم خلق آخر ملك بأحشاء آخر رجل دين " ، " لم يسبق لفيلسوف أن قتل رجل دين ، لكن رجل الدين قتل الكثير من الفلاسفة " ..

إيتين كوندياك : فرنسي ولد في عام 1715 ، ويعتبر كتابه " رسالة في الإحساسات " أهم كتبه حيث شرح فيه أفكاره الاجتماعية والاقتصادية ..

آدم سميث : اسكتلندي ولد في عام 1723 ، وهو من منظري العالم الاقتصاديين بالإضافة إلى كونه فيلسوبا ، كانت أسناده وهو في العشرينات من عمره بجامعة جلاسكو وأهم كتبه هو " ثروة الأمم " وهو الكتاب الذي أحدث انقلابا في المفاهيم الاقتصادية

في العديد من دول العالم ..

إيمانويل كانت : ولد في بروسيا – ألمانيا – في عام 1724 وهو أيضا ينتمي إلى مدرسة الفلسفة العقلانية التجريبية ، ويعتبر آخر فلاسفة عصر التنوير ..

عدلت الديمقراطية المباشرة من وضعها في المرحلة الوسطى ، وأصبح يتم ممارستها من خلال نواب ينتخبهم الشعب ، وهنا نشأت ما يسمى **بالديمقراطية النيابية** .. كان أهم ملامح الديمقراطية النيابية هي الفصل الواضح بين السلطات الثلاث ، التشريعية والتنفيذية والقضائية ..

لاشك أن عصر التنوير كان الحضارة الذي أخرج فكرة " العلمانية " إلى الوجود ، صحيح أن تلك الكلمة ظهرت قبل هذا العصر بنحو قرنين ، كان ذلك تحديدا في القرن الثالث عشر مارسيل البدواني في كتابه " المدافع عن السلام " إلى الفصل بين السلطتين السياسية والروحية واستقلال الملك عن الكنيسة في وقت كان الصراع الديني بين بابوات روما وبابوات أفنيغون في جنوب فرنسا على أشده ، لكن اسبينوزا كان له السبق في انتشارها وتقويتها في أوربا ، ربما بسبب عيشه في هولندا والتي كانت تمثل في تلك الفترة منارة الحرية والازدهار حول العالم ، وقد تبعه جون لوك في نشر المبادئ العلمانية والتي تتمثل في ضرورة فصل الدين عن الدولة ..

جاء القرن العشرون وشهد فيه العالم حريين عالميتين أكلت الأخضر واليابس في عشرات الدول الغنية ، صاحب ذلك انتشارا للفاشية في إيطاليا وألمانيا ، توسعت الشيوعية في مرحلة تالية وانتقلت من مكان إلى آخر داخل أوروبا وخارجها ، مثل ذلك في مجملها انتكاسة كبيرة للديمقراطية ، وقد أوردنا في صدر الحلقة الأولى في دراستنا النتائج الكارثية للسياسيين في تلك الفترة والتي أدت في نهايتها إلى نشوب حروب أدت إلى مقتل 225 مليون من البشر في القرن العشرين وضعفهم على الأقل من الجرحى وتدمير شامل لمقدرات الدول ..

تلت مرحلة التقلبات السابقة موجات من الثورات على الاستعمار أخرجت عددا كبيرا من شعوب المعمورة إلى التحرر ، لكن هذا التحرر كان على الورق فقط في أغلب تلك البلدان ، فقد تولى الحكم في تلك البلدان المتحررة قادة لا يؤمنون بالمعنى الحقيقي لكلمة ديمقراطية ، هكذا انتقلت الشعوب من ظلم الاستعمار الأجنبي واستغلاله لثروات البلاد إلى ظلم قيادات محلية تنهب الثروة وتنتهك الحريات وتزور الانتخابات ، لقد كانت أغلب تلك القيادات المحلية يرتدى الزي العسكري ..

نأتي الآن إلى المرحلة الثالثة لتطور كلمة الديمقراطية ، اختارت اسما لها وهو " الديمقراطية الليبرالية " .. كان أهم ما يميزها عن الديمقراطية النيابية هي أن الديمقراطية الليبرالية تهتم بحقوق الأقليات بحماية الدستور لهم ، لهذا يطلق عليها أيضا اسم الديمقراطية الدستورية ..

تكفل الديمقراطية الليبرالية لمواطنيها عددا من الحقوق الاجتماعية وأهمها ما يلي : المساواة أمام القانون - الحق في التعبير - حرية الصحافة والحصول على المعلومات - حرية التعبد - الحق في التظاهر والانتساب إلى الجمعيات - القضاء المستقل - حرية التعليم - حرية التنقل - تحقيق اللامركزية بشكل واسع - الحق في البيع والشراء والتملك ..

كما توصل الديمقراطية الليبرالية الحقوق السياسية المتوارثة وتزيد من كفاءتها ، وتتلخص تلك الحقوق فيما يلي : ضرورة الفصل الواضح بين السلطات الثلاث س- الإيمان بالتداول السلمي للسلطة - حماية حقوق المعارضة - الدفاع عن حرية وكرامة المواطنين ..

فرضت التطورات الاقتصادية التي شهدتها العالم في العقود الأخيرة إلى ظهور المرحلة الرابعة من الديمقراطية وهي " الديمقراطية الحديثة " ..

كانت سياسات السوق قد زادت انتشارا في دول عديدة حول العالم محققة نجاحات ملموسة ، كان من نتيجة ذلك زيادة معدلات الرخاء ، تزايدت سرعة انتقال رأس المال من مكان آخر وأنشأت العديد من المشروعات الاقتصادية المشتركة ، من هنا

ظهرت الحاجة إلى سن قوانين تكفل حماية الأفراد والمؤسسات والدول ..

لقد تزعمت أمريكا الديمقراطية الليبرالية ، كما تزعمت أيضا الليبرالية الحديثة ، وساعدت إمكانياتها الكبيرة ومصادرهما المتنوعة على انتشار هذين النوعين في أماكن عديدة حول العالم .. لكن من الصائب أن نقول أن أمريكا قد طبقت معايير مزدوجة لتلك الديمقراطيات التي تولت رعايتها – أو لنقل حمايتها – في عدة أماكن مختلفة حول العالم ، لقد كان سلوك أمريكا شاننا وغير أخلاقي وأضر كثيرا بسمعتها وهيبته حول العالم ..

في اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان تولت أمريكا نشر الديمقراطية ، فقامت بتدريب كوادر تلك البلاد وحرصت على متابعة العمل بدقة لتصويب الأخطاء التطبيقية أولا بأول ، كانت النتيجة هو تحقيق رخاء اقتصادي كبير شعر به المواطن ..

كانت رسالة أمريكا في اليابان بعد أن هزمتها وخضعت للاحتلال الأمريكي ونزعت قداسة الإمبراطور هي إقناع الشعب الياباني بأن الرخاء الاقتصادي وليس السلاح هو الذي سيحقق لأفراده السعادة ..

كانت رسالة أمريكا في كوريا الجنوبية وتايوان هي تحقيق أقصى درجات الرخاء بهما لدفع الشعب (أو القيادة) في الشمال الكوري والصين – حيث أصبحنا ضمن المعسكر الشيوعي – إلى الإيمان بقوة بأن طريق الرأسمالية الأمريكية هو طريق الرخاء وأن طريق الشيوعية هو الفقر ..

في الشرق الأوسط خاصة ، وفي أماكن أخرى مثل أمريكا اللاتينية بصورة عامة ، لعب العم سام دورا مدمرا ، فقد احتضن قيادات فاسدة في تلك البلاد قامت بنهب ثروات البلاد وانتهاك الحرمات ، فتولى تدريب كوادرها العسكرية ودافع عنها في المحافل الدولية ، لقد كانت النتيجة الطبيعية لتلك السياسات الأمريكية الغير أخلاقية كارثية ، فقد دفعت شعوب تلك الدول ثمنا باهظا من دماء أبنائها وثرواتها ، بالإضافة إلى الضرر الذي لحق بأمريكا نفسها كدولة تزعم نشر الحرية والرخاء في دول العالم ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس – ميزوري – أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com